

اللغة العربية في نيجيريا من العصور الوسطى الى اليوم

د. أبو بكر بلاربي

المدخل :

ان اللغة العربية لغة أم لأكثر من مائة وخمسين مليون نسمة في العالم. وهي لغة القرآن الكريم، لغة الاسلام يستعملها المسلمون في العبادات والمناسك، وهؤلاء يناهز عددهم ثلاثمائة مليون نسمة من غير العرب. منهم عدد كبير يقرأ ويكتب ويفهم ما يذاع في هذه اللغة، وفي استطاعته ان يتحدث بها مع غيره؛ ومنهم من لا يفهمها ولا يتعلمها. واللغة العربية لغة ذات أهمية كبيرة اذ هي من اللغات التي اعترفت بها منظمة الأمم المتحدة وتستعمل في أكثر وكالاتها المتخصصة.

وبما أن اللغة العربية لغة الاسلام فانها ترافق الدين حيثما ولج واستقر، اذ أن المسلمين مطالبون بحفظ بعض السور والآيات القرآنية ليقرووها في صلواتهم المختلفة، ولهم أدعية عربية يقرؤونها في الحج والعمرة والحلقات الصوفية، كما يحتاجون إلى تعليم تعاليم الدين، ويكون ذلك في الغالب عن طريق تلقي دروس في اللغة العربية من كتب فقهية وتفسير وكتب في الحديث وعلومه تكون مبسطة أول الأمر وهكذا بالتدريج.

وقد يقوم بعض العرب بالزيارات التجارية إلى بلاد غير مسلمة ويدعون سكانها إلى الدين الحنيف، فيضطرون إلى استعمال لغتهم لذلك، لغة فصحي أو عامية أو خليط بين ذلك وبين اللغات المحلية ان تعلموها.

وبذلك تسنح الفرصة للسكان المدعويين إلى الاسلام كي يتعلموا ألفاظا دينية عربية إلى جانب ما يتعلمون من مفردات اللغة وتعابيرها للاستعمال في التخاطب العادي. ومنهم من يجيد اللغة عن طريق التعلم من أولئك الدعاة الأجانب. وإلى جانب ذلك فان الحج والعمرة من العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية بين المسلمين الذين يؤدون الفريضة والسنة اذ أنهم يضطرون إلى المحادثة مع العرب وغيرهم أثناء وجودهم في الأراضي المقدسة في الموسم. فاللغة العربية تكاد اللغة الموحدة بين الحجاج جميعا، يستعملونها في عباداتهم ومناسكهم ومخاطباتهم في معاملاتهم.

هذا وإن الغرض من هذه المقالة تسليط الضوء على دخول هذه اللغة العريقة إلى نيجيريا، ولا سيما الجزء الشمالي منها واستعراض المراحل التي مر بها انتشارها وازدهارها أو جمودها مع الإشارة إلى العوامل التي ساعدت على ذلك الانتشار أو الجمود في مختلف العصور، وما يتوقع لها من المستقبل.

نبذة تاريخية :

لم يكن القطر النيجيري في الزمن الماضي كتلة أو وحدة جغرافية كما هو معروف اليوم، وإنما كان عبارة عن ولايات مستقلة كل الاستقلال بعضها عن البعض الآخر، منها :

1 - مملكة كانم برنو في الشمال الشرقي التي هي اليوم نيجيريا، وقد كانت مشهورة في البلاد العربية والإسلامية منذ القرن التاسع الميلادي مع أنه يصعب تحديد تاريخ نشأتها وبعد أن قويت شوكتها وبلغت ذروة نفوذها وقوتها شنت ضدها قبيلة الببالا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي غارات هددت كيائها فاضطر ملكها عمر بن ادريس وجيوشه إلى الهجرة إلى منطقة برهو. ومن هناك واصل الملوك محاربة الببالا لأكثر من قرن وحينما تولى الملك علي غاج بن دوناما بن بري، الذي أعاد للمملكة قوتها وشوكتها وبنى عاصمة جديدة تسمى نغزرغمو فأصبحت المملكة تعرف بمملكة برنو، ومن خلفائه ملك ضرب الببالا ضربا شديدا أفقدهم رشدهم وتوازنهم فيما بعد، هو ادريس كنغرمبي والمدعو ادريس الموما الذي تقلد زمام الملك هناك من (1570 وحتى 1603) وهاجم الببالا عدة مرات فشن غارات ضد المناطق الغربية إلى أن وصل إلى كنو. وكللت غاراته بنجاح باهر، وبذلك الانتصار بلغت مملكة البرنو أوجها قبل أن يتسرب إليها الضعف، وهكذا إلى أن قام الشيخ عثمان ابن فودي بثورته الإصلاحية في أوائل القرن التاسع عشر.

2 - ولايات الهوسا :

إن كلمة الهوسا، كما ذكر الدكتور شيخو أحمد سعيد غلانتني⁽¹⁾ كانت تطلق على الشعوب والقبائل التي كانت تقطن بين مملكة برنو شرقا والمنطقة الواقعة في الضفة الغربية لنهر النيجير غربا ومن حدود مملكة أهير شمالا إلى حدود نهر لبيئوي جنوبا، وتطلق كذلك على اللغة التي تتحدث بها تلك الشعوب والقبائل.

والملاحظ أنه كانت هناك عدة عوامل تربط تلك الولايات ببعضها الآخر، منها لغة الهوسا التي كان يتكلم بها سكان كل ولاية منها، ومنها التجارة، وتلك رابطة قوية، إذ كان بعضها يحتاج إلى ما كان لدى البعض الآخر من محصولات ومعادن وما إليها كما كان قد تحالف بعض تلك الولايات ببعضها الآخر تكتلا ضد الأعداء.

(1) الدكتور شيخو أحمد سعيد غلانتني : حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا.. دار المعارف. ط 1 - 1982 - ص 40.

وتقسم الأسطورة الشائعة تلك الولايات إلى قسمين :

الأول :

ويضم كنو، وكثنه، وزكزك، ودورا، وغوبر، ورنو، وغارن غبس، وتلك هي الولايات الأصلية (Hauza Bakwai).

الثاني :

ويتضمن كب، ونفى، ويوربا، وياور وغرم، ويزغو، وزنفرا. وتلك هي الولايات الفرعية (Banza Bakwai).

ويقال ان الأمراء الذين أسسوا الولايات الأصلية وكانوا من أب واحد وهو بايجد (أبو يزيد)، وإن ابنه باو هو الذي أنجب سبعة أولاد، قام كل واحد منهم بتأسيس ولاية واحدة.

وفي القرن الرابع عشر أخذ عدد كبير من الفلانيين يهاجرون إلى بلاد الهوسا من مملكة مالي وما جاورها من ممالك وإمارات. وقد أسهموا كثيرا في نشر الاسلام في البلاد آنئذ. وكان الفلانيون ذوو ثقافة أرقى من ثقافة أغلبية سكان تلك المنطقة فتمكنوا بذلك من السيطرة على البلاد، وكان زعيمهم في أوائل القرن التاسع عشر عثمان بن فودي الذي قام بثورته الإصلاحية بعد أن نجح في جمع شمل نوعي الفلانيين المقيمين والبدو الرحل. وظل الفلانيون يسيطرون على تلك الولايات الى أن أتى الانجليز وبسطوا استعمارهم الممقوت على البلاد كلها في مستهل القرن العشرين.

اما في الغرب فقد كان لمملكة بينين السلطة الواسعة، وقد حكمت تلك الرقعة الأرضية زمنا طويلا إلى أن أتى المستعمر البريطاني واستولى عليها.

هذا، وقد كانت هناك دويلات أخرى تتوسط الممالك المذكورة الا أنها كانت أقل أهمية من الممالك المشار إليها. كما كانت في شرقي الرقعة امارات أقل أهمية - هي الأخرى من تلك الدويلات وكانت في الغالب تدين بالوثنية.

دخول الاسلام وانتشاره في نيجيريا :

ان الاسلام - كما ذكر المؤرخون - دخل نيجيريا في فترات تتراوح بين القرن الحادي عشر والرابع عشر⁽¹⁾ الا انه يبدو مما ينكره أغليبيتهم أنهم لم يؤرخوا للاسلام بدخول الأفراد العاديين وإنما أرخوا لدخوله باقبال الأمراء والملوك وأسرههم عليه، ذلك أنهم ينكرون في تواريخهم أول ملك مسلم في كل ولاية. ولعل القولة المأثورة التي تقول بأن الناس على دين

(1) حركة اللغة العربية... ص 29.

ملوكهم هي التي كانت تحركهم. وبناء على ذلك فانه يمكن القول بأن الاسلام قد دخل إلى البلاد الموجودة شمالي ما يسمى اليوم بنيجيريا قبل القرن الحادي عشر، خاصة وإن كثيرا مما يقول المؤرخون منوط بالتخمينات والظنون.

وفي الحقيقة ان الاسلام قد دخل تلك البلاد، ولا سيما ما يقع منها في الشمال، بالطرق السلمية على أيدي التجار الذين كانوا يحملون إليها بضائعهم من الشمال أو من الشمال الشرقي عبر طرق القوافل، مما يصل إلى أعالي نهر النيجر من سجماسة وما يصل إلى بلاد الهوسا من غدامس وما يصل من طرابلس وما إلى ذلك.

وقد كان هؤلاء التجار ينزلون عند أصحابهم ويتعاملون معهم ومع غيرهم في تجارتهم. فكان السكان يشهدون كيف كان التجار المسلمون يؤدون واجباتهم الدينية من صلاة وصوم وما إلى ذلك، وكيف يتعاملون معهم بصدق وأمانة واحترام دونما غش أو خيانة، فمواضبة هؤلاء المسلمين على أداء تلك الواجبات نحو معبود لا يرى وظهورهم بتلك المعاملة الطيبة أثر في نفوس أصحابهم في هذه البلاد وجذبهم ودعاهم إلى اعتناق الدين الاسلامي الحنيف.

أما اسلام الأسرة الحاكمة فكان غالبا نتيجة لعلاقة تجارية أو ودية تتكون بين تاجر من التجار المسلمين المشار إليهم وبين أمير أو عضو من أعضاء الأسرة فيعتنق الاسلام على نحو ما ذكرنا، فتسلم معه الأسرة جميعا ثم يقوم أولوا الأمر من أعضاء الأسرة والطبقة الحاكمة بنشر العقيدة الاسلامية بين الشعب أجمع إلى أن تصير الامارة أو المملكة مسلمة.

هذا وقد دخل الاسلام إلى ما هو جنوبي نهر النيجر وبينوى كذلك عن طريق التجارة، ذلك ان التجارة نمت نموا كبيرا بين بلاد الهوسا وبرنو من جهة وبين بلاد اليوروبا بما في ذلك من مملكة اويو (Oyo) ومملكة بينين (Benin) من جهة أخرى منذ زمن بعد جدا قيل دخول الاسلام في الشقين مما هو بلاد نيجيريا اليوم. وكان أولئك التجار يتصرفون في هذه البلاد المذكورة بحرية كاملة كما يقول جونسون⁽¹⁾ فقد دخل الدين - كما يزعم جونسون - في بلاد اليوروبا للمرة الأولى في أواخر القرن الثامن عشر مع ان غيره يذكر أن عددا قليلا من العلماء المسلمين كان يعيش في القرن السابع عشر في عاصمة مملكة اويو ببلاط الملك الأكبر الملقب بألافن⁽²⁾ (ALAFIN).

وربما كان أقرب إلى الصواب ما ذكره الشيخ آدم عبد الله الالوري وهو أن الاسلام تسرب إلى بلاد اليوروبا وانتشر منذ القرن الثالث عشر، إذ أن الدين الاسلامي كان يعرف عنه أهلها منذ ذلك الزمن بدين مالي (ESIN MALE) لأنهم عرفوه وأخذوه عن أهل مالي. ولا يستبعد ذلك اذا اعتبرنا قول المؤرخين كما ذكرنا آنفا - ان الاسلام أخذ ينتشر في بلاد الهوسا فيما بين القرن الحادي عشر والرابع عشر، وملاحظتنا انه من الممكن ان يكون قد انتشر بين أفراد الشعب هناك قبل القرن الثاني عشر.

S. Johnson History of the yorubus, Greet Britin, eth. ed 1976, p. 3.

(1)

Gbadamos, T.G.O. The growth of islam among the yorubus, Longmans, London, 1st ed. 1978. p.4.

(2)

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الدين الاسلامي لم ينتشر كل الانتشار في بلاد اليوروبا ولم يقو الذين اعتنقوه الا في العقد الأول من القرن التاسع عشر حينما تغيرت الأوضاع وتحسنت أحوال المسلمين بسبب الحركة الاصلاحية التي قام بها الشيخ عثمان بن فودي، تلك الحركة التي تعدّ العامل الرئيسي لانتشاره في البلاد.

اللغة العربية قبل اصلاحات الشيخ عثمان بن فودي :

ان عوامل عديدة ساعدت على انتشار اللغة العربية في هذه المنطقة، منها دخول الاسلام، اذ ان اللغة كانت ترافقه أينما ذهب، لأن أداء واجباته يستلزم تعلمها، فيتعلم المسلم آيات وسورا واصطلاحات دينية لم يعرفها من قبل. كما كان هناك عدد غير قليل من التجار العرب الذين أسهموا اسهاما قويا في نشر الدين واللغة. أما من ناحية نشرهم للغة فمعروف ان التجارة في الغالب تستدعي وتستوجب ايجاد لغة تخاطب وتبادل، ولابد من الاختيار بين اللغة العربية وبين اللغة المحلية. فكان الخيار يقع على العربية لامتيازها بالرفق، الأمر الذي اتاح لالفاظ وتعابير عربية ان تجد طريقها إلى اللغة المحلية كلغة الهوسا واللغة الفلانية ومن ذلك أسماء البضائع المستوردة. وقد كان أثر العربية في لغة الهوسا مثلا قويا جدا لأن لغة الهوسا كانت ولا تزال هي لغة التجارة صاحبة الصدارة في أسواق غربي افريقيا.

وزيادة على ذلك فان مملكة كانم ومملكة برنو أسستا علاقة متينة بينها وبين دول عربية اسلامية كمصر وتونس ومراكش، ولقد لعبت هذه العلاقة دورا هاما في نشر الثقافة العربية الاسلامية، ذلك ان التعليم انتشر فكثر المعتنون به، بالاضافة إلى أنه وفد إلى البلاد عدد كبير من العرب تسموا باسم قبيلة شوا. فيمكن انن ان نعتبر التجارة نقطة انطلاق لانتشار اللغة.

وهناك عامل آخر كانت له أهمية كبيرة هو تأسيس المدارس القرآنية. ذلك ان الاسلام، حيثما انتشر، استدعى تأسيس مثل هذه المدارس استيفاء للضرورة الدينية نحو الفروض العينية وغيرها. ففتحت المدارس لتحفيظ الأطفال سورا قرآنية. ويخيل إلينا ان بعض التجار ساعدوا على تأسيسها كما أسهموا كثيرا في التعليم بها أول الأمر وكان التلاميذ يتعلمون تلاوة القرآن.

ومن العوامل الأخرى الزيارات المتبادلة ابتداء من القرن الرابع عشر مما ساعد على انتشار تعليم مبادئ الاسلام واللغة العربية. فقد زار بلاد الهوسا عدد كبير من المسلمين الأجانب، جماعات وأفراد. كما تنقل بعض العلماء من ممالك الهوسا من بلد إلى آخر جريا وراء المعرفة والعيش. وقد يرافقهم طلابهم في تلك الرحلات. ولقد سجل لنا التاريخ ان من الوفود التي قامت بمثل تلك الزيارات إلى بلاد الهوسا وفد الونجرا وبين الذين وفدوا إلى كنو في عهد الملك المسمى بعلي ياجي (1349/1385) وكان عددهم حوالي أربعين، يرأسهم عبد الرحمن زيتي⁽¹⁾. وجدير بالذكر ان الدين الاسلامي أصبح الدين الرسمي في تلك الولاية عقب

(1) حركة اللغة العربية... ص 45.

تلك الزيارة. كما قام بزيارة أخرى إلى كنو وساعد على انتشار اللغة وثقافتها وتعاليم الدين الاسلامي محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني هو وأتباعه وكان ذلك في عهد الملك محمد رُمفًا (1463/1499)، وكان لتلك الزيارة صدى كبير ودوي، ذلك ان المغيلي أصبح أستاذًا للملك ومستشارا وعضوا من أعضاء المجلس الاستشاري الذي كلفه بتكوينه فكونه. كما كتب للملك وصية في اللغة العربية يشير عليه فيها إلى وجوب درء المفاصد الدينية والدنيوية بالقوة. فان دل ذلك على شيء فانما يدل على مستوى فهم اللغة العربية آنذاك والذي لا بد أن يكون رفيعا. هذا ولم تقتصر زيارة المغيلي على كنو، وانما امتدت إلى كثنا سنة 1493 وانتجت تأسيس حكومة اسلامية بها.

وتنبغي الإشارة إلى أن تلك الزيارات تعددت وتكررت. وكلما قام زائر بزيارة مدينة احتشدت جامعة الطلبة حوله يغترفون من بحر علومه، ومنهم من يرافقه حيثما ذهب إلى أن يستقر في مدينته أو غيرها ويتصدر للتدريس والافادة. وهناك عامل لعب دوره في انتشار اللغة، يتمثل في استيلاء ملوك صنغاي على ولاية كثنا نتيجة لغارات شنوها بين سنة 1512 و 1513 كللت بالنصر. ومما بلغت الانتباه ان سلطة صنغاي على الولاية لم تتجاوز أربعين عاما، الا ان آثارها وفوائدها الثقافية كانت بعيدة المدى. ذلك ان عددا كبيرا من علماء صنغاي زاروا الولاية حيث أقاموا ودرسوا. وتقول المصادر ان كثنا بلغت ذروة مجدها في اواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر حتى فاقت مدينة تمبكتو نفسها تجاريا وثقافيا. فقصدتها جماعات عديدة من طلاب العلم والمعرفة من كل صوب.

ولقد شكل مسجد سنكوري الجامع منارا عملاقا وعاملا قويا لعب دورا هاما في تثقيف علماء كثيرين من بلاد الهوسا ومملكة كانم - برنو، ذلك ان المسجد أصبح مركزا ثقافيا كبيرا منذ القرن الرابع عشر، يقصده العلماء من كل حذب وصوب في غرب افريقيا. ومن الواضح أن يكون علماء تلك البلاد المنكورة وطلابهم قد سمعوا بذلك المعهد الكبير فقصدوه للاستفادة أو جلسوا إلى علماء قد تعلموا هناك.

ويخيل للانسان أن الذين قاموا بالزيارات إلى البلاد العربية اضطروا إلى تعلم اللهجات المحلية للتخاطب اليومي وللاستعمال في المجال العلمي. ويمكن القول بأن العلماء الذين قاموا بزيارة لبلاد الهوسا ومملكة برنو أخذوا أولا يدرسون طلبتهم بعاميتهم المختلفة فاضطر الطلبة إلى أن يتعلموا تلك اللهجات قبل ان يتعلم العلماء اللغات المحلية لاستعمالها في تدريسهم.

ولعل ذلك ما جعل أهل بلاد الهوسا يتعلمون اللغة العربية - فصحاها وعاميتها - حتى أتقنها بعضهم وتملك زمامها.

وهناك الحج كعامل لعب دوره في انتشار اللغة العربية اذ انتهزه سكان بلاد الهوسا وبرنو فرصة للرحلة إلى الحرمين مشيا على الأقدام، مروراً ببلاد مختلفة في طريقهم، مضطرين إلى كسب المعيشة.. ولقد انتهزها أولئك القاصدون فرصة لطلب العلم وتوسيع الآفاق الثقافية الشخصية. فخرجوا على مراكز ثقافية للاستفادة أحيانا وللإفادة حينا. وكان الأزهر من بين

المراكز التي مروا بها ذهابا وإيابا. فهناك استمعوا إلى المحاضرات المفتوحة التي كان يلقيها مشايخه وعلماءه المشهورين وكانوا يتصلون بهم ويتباحثون مع غيرهم من العلماء وصادقوهم. نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ محمد الفلاني الكتناوي الذي مر في طريقه للحج بدمن كثيرة اتصل بعلمائها وأمرائها وجلس إلى العلماء ووسع آفاقه العلمية ولف مؤلفات عديدة وذاع صيته فأقر بعمله وفضله علماء مصر والحجاز ولا سيما الحرمين⁽¹⁾. ولعل هذا مما يدل على رفعة مستوى اللغة العربية لدى أولئك، فقد تعلموا اللغة وثقافتها حتى نبغوا في ذلك وأفادوا. ومنهم الشيخ جبريل استاذ الشيخ عثمان بن فودي الذين حج مرتين مشيا على الأقدام مارا بمناطق عديدة ومكتسبا ما ينفع به على نفسه، ومستفيدا ومفيدا في سبيل المعرفة والعلم.

هذا وقد لعب إيراد الكتب بمختلف أنواعها إلى البلاد دورا هاما في انتشار اللغة العربية وثقافتها. وكان ذلك عن طرق مختلفة فالتجار كانوا يوردونها للبيع كما كان العلماء الوافدون يأتون بعدد كبير منها، ثم تنتشر عن طريق النسخ من جانب العلماء والطلبة أنفسهم أو من جانب النساخ المحترفين وعلى سبيل المثال فقد قيل إن المغيلي أتى بكتب كثيرة نسخت وانتشرت وراجت. مثله في ذلك مثل الشيخ التوسي والشيخ عبد السلام هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن الذين زاروا بلادا أخرى عربية وغير عربية كما ذكرنا - لأسباب مختلفة ومنها طلب العلم فانهم كانوا يعودون وفي حوزتهم وملكيته عدد كبير من المؤلفات التي قرؤوها أو سمعوا بها وحصلوا عليها.

ولم تتخلف الطرق الصوفية عن القيام بدورها في نشر الثقافة العربية. فقد كانت الطريقة القادرية أكثر انتشارا من التيجانية في الولايات النيجيرية القديمة في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. تغلغل نشاطها إلى غربي أفريقيا منذ القرن الخامس عشر فوصل إلى تمبكتو وهكذا إلى أن وصل إلى ما يسمى اليوم بنيجيريا⁽²⁾. وكان الشيخ جبريل أستاذ الشيخ عثمان من مشهوري علماء تلك الطريقة، وكان يعتبر مثالا في العلم والورع⁽³⁾ ومعروف أن أنكار الصوفية وأدعيتها وأورادها تؤدي في اللغة العربية يحفظونها ويؤدونها كما هي ولا يفهم معاني تلك الأشياء منهم إلا الخاصة. ومع ذلك فإنها لعبت دورا فعالا في تعزيز اللغة والثقافة العربية والإسلامية.

وتنبغي الإشارة إلى أن الدراسات الإسلامية كان لها مكان الصدارة لدى علماء المنطقة وطلبته.

ومن الكتب المتداولة بين العلماء والطلبة آنذ في الفنون المختلفة كما يذكر الأستاذ عبد الله بن فودي⁽⁴⁾ المقدمة العزية، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومختصر خليل بن اسحاق، وتفسير الجلالين، وقطر الندى، وألفية بن مالك، ومقامات الحريري.

(1) اتفاق الميسور... ص 23.

(2) د/ علي أبو بكر/ الثقافة العربية في نيجيريا. مؤسسة عبد الحميد البمباط ببيروت ط 1/1972 ص 68/67.

(3) نفس المرجع ص 68.

(4) إيداع النسخ من أخذت عنه من الشيوخ/خطوط موجودة في قسم البحوث من المكتبة العامة بجامعة مايلو - كنصوص 2 - 4.

وبما أن اللغة العربية كانت لغة ثقافة آنذ ولم تكن لغة تخاطب ولا لغة أم لدى سكان المنطقة فإن المنشغلين بالتعليم العربي اضطروا إلى ترجمة النصوص إلى لغاتهم المحلية. فالطالب يقرأ على معلمه فيفسر له المعلم بلغته المحلية ويخيل إلينا أن المعلم كان يفسر بلجته العربية إذا كان عربيا أو يجيد اللغة العربية ولم يكن يجيد اللغة المحلية.

ويبدو جليا أن اللغة العربية مرت بمراحل في هذه الديار في ذلك العهد فبدأ الناس يتعلمون تعاليم الدين الاسلامي مبسطة، إلى جانب تلاوة القرآن وكتابته وحفظه، ثم أخذوا يكتبون لغاتهم المحلية بالحروف العربية. ومن هنا شرعوا في قراءة الكتب الدينية فيترجم لهم علماءهم بلغاتهم المحلية في الغالب ثم قام بعض من اتقن اللغة ووقف على خفاياها يؤلف شعرا ونثرا على غرار ما تعلمه وطالعه، ويكون أسلوب نثرهم في الغالب أسلوبا فقهيًا علميًا.

وقد ارتبطوا أول الأمر بشرح بعض الكتب المتداولة وكتابة الحواشي لها قبل أن يشرعوا في محاولات التأليف والكتابة.

اللغة العربية في العهد الفلاني (1) :

المأمل لما كان عليه وضع الدولة الفلانية التي أسسها الشيخ عثمان بن فودي ابتداء من سنة 1804 إلى أن استولى الانجليز على البلاد يدرك أنها كانت دولة كبيرة مترامية الأطراف، الأمر الذي جعل أولي الأمر يؤسسون دواوين لادارتها. ومما يلفت الانتباه أن زعماء الدولة لم يتخذوا اللغة الفلانية التي كانت لغة أم الشيخ وأقربائه وكبار وزرائه لغة رسمية ولم يتخذوا لغة الهوسا وقد كان أغلبية المحكومين من قبيلة الهوسا كذلك. وإنما تبناوا اللغة العربية لغة إدارة تستعمل في الدواوين وفي المراسلات بينهم وبين الخليفة - وكان مقر خلافته صكتو - وبين العواصم الأخرى للامارات التابعة للعاصمة الفلانية. والعربية هي التي كانت تستعمل كذلك في المعاملات الدولية والعلاقات الدبلوماسية بين الدولة والدول الأخرى.

كما ينبغي التنبيه إلى أن الدولة لم تنشئ المدارس الحكومية الا انها اهتمت اهتماما كبيرا بالتعليم وشجعت تشجيعا واسعا، ذلك أن أولي الأمر في العاصمة وفي العواصم الأخرى كانوا علماء ومدرسين، وعلى رأسهم الشيخ عثمان نفسه الذي كان قائدا وداعية ومدرسا (2). وقد كان هناك علماء آخرون كثيرون من غير رجال السلطة، ولم يضمن هؤلاء وأولئك بعملهم، على الناس، فكان كل عالم مدرس يستخدم منزله مدرسة، أن لم يفتحه على مصراعيه لكل من يريد وروده من الشعب، فانه قام على الأقل بتعليم نوي رحمه الاقربين واستعمل هؤلاء وأولئك في نشر الدين واصلاحه ونشر الثقافة العربية الاسلامية.

وربما يصح القول ان النظام التعليمي في العهد الفلاني لم يختلف عما كان عليه في العصر الذي سبقه. الا انه تجدر الإشارة إلى أن عدد المدارس والقائمين عليها قد ازداد. فالتلميذ

(1) الفترة ما بين 1804 / 1903.

(2) حركة اللغة العربية... ص 82.

يلتحق بالكتاب وإذا كان مجتهدا يكرر قراءة القرآن الكريم وتلاوته مرارا حتى يحفظه عن ظهر قلب. وكثير من هؤلاء الطلبة من يواصلون دراساتهم فيلتحقون بالمعاهد التي تكون للكبار حيث يبدأون بدراسة الكتب الأولية في مبادئ الدين كالأخضرية والعشماوية ثم ينتقل إلى المقدمة العزبية ثم الرسالة لأبي زيد القيرواني حتى يصلوا إلى دراسة مختصر خليل، وكل ذلك في الفقه، حيث يكون تدرجهم من الكتب المبسطة إلى كتب أعلى مستوى.

هذا وقد يضطر الطلبة إلى التنقل بين عالم وآخر في بلد واحد أو في مدن وقرى مختلفة جريا وراء تخصصات العلماء المدرسين. وعندما يحصل الطالب على ما فيه الكفاية يستقر في مكان ويتصدر للتدريس أو التدريس والتأليف معا.

وبما أن التعليم لم يكن خاضعا لنظام حكومي تنفق عليه الحكومة ظل فرديا. وبما أن المعلمين لم يكونوا يتقاضون مكافآت رسمية معينة فإن المتعلمين كانوا يدفعون لهم مكافآت أسبوعية أو نصف شهرية أو شهرية أو عندما يختم التلميذ أو الطالب القرآن أو كتابا آخر، وطبيعي إن يهتم المعلم أكثر بالمتعلم أو الطالب الذي يدفع أكثر من غيره.

وحري بالذكر أن زعماء الدولة وعلماءها الآخرين ألفوا كتباً عديدة في شتى الفنون العلمية مما زاد في عدد الكتب «المقررة» التي كان يتداولها الناس علماء وطلاباً وقد اتصف كثير من تلك المؤلفات المحلية بالبساطة وزيادة الايضاحات للمسائل المثارة في مؤلفات أخرى معروفة. ونتيجة لهذه الحركة العلمية الواسعة فقد أصبح عدد الذين كانت لهم معرفة باللغة العربية في العصر الفلاني أكبر من عدد أمثالهم في الفترات السابقة. وقد يعزى ذلك إلى عاملين رئيسيين قويين كنا أشرنا إليهما. أولهما اتخاذ أولى الأمر اللغة العربية لغة إدارة وديبلوماسية وثانيهما الاهتمام بالتعليم والثقافة والتأليف مما عزز الدراسات العربية والإسلامية آنئذ. وجعل ذلك العصر عصر نهضة ثقافية أدبية واسعة وإن لم يكن هو العصر الأدبي الذهبي في نيجيريا. فكان العلماء يتخاطبون باللغة العربية فيما بينهم ويتراسلون.

وبذلك تعدد الانتاج الادبي من شعر ونثر في هذا العصر الأدبي الزاهر، وهو ما سنعرض له في هذا المجال.

الشعر :

إن أول ما يسترعي انتباهنا أن الذين قرضوا الشعر باللغة العربية في تلك الامارات هم العلماء الذين قرؤوا أشعار بعض من سبقهم من جاهليين كأصحاب المعلقات، وبعض شعراء صدر الاسلام مثل كعب بن زهير، إلى جانب علماء محليين، أخذوا العلم عن بعض هؤلاء. فأعجبوا بذلك وحاولوا ان يقتفوا آثارهم ويحاكوه فيما قرضوا.

ومن الأغراض التي طرقوها في أشعارهم : المدح، والثناء، والشعر التعليمي، وشعر الجهاد، والغزل. وإذا تأملنا فيما وصل إلينا من أشعارهم اتضح لنا أن أكثر ما قالوه كان في

المدح والشعر التعليمي وشعر الجهاد والوعظ والارشاد. ذلك أن البيئة السياسية والاجتماعية والدينية كانت صالحة لذلك⁽¹⁾ ومشجعه عليه ومع هذه الأغراض المشار إليها لا نجد الا القليل من الشعر الهجائي، وأقل منه في الشعر الغزلي الذي كان لا يتجاوز مطالع القصائد.

وقد أكثروا من الشعر التعليمي المتضمن للالفاظ السهلة لخدمة فنون مختلفة كالفقهاء والحديث والعروض والصرف والنحو وتقريبها إلى أذهان الطلبة وافهامهم.

وبما أن العلماء الشعراء جعلوا نصب أعينهم محاكاة ما قرضه أسلافهم من شعر، فانهم اذا مدحوا مثلاً خلعوا على الممدوحين تلك الشيم والاخلاق الطيبة الحميدة التي وصف بها القدامى ممدوحهم من كرم وشجاعة واباء وحماية جار واکرام ضيف، وزادوا على ذلك العلم وتعزيزه والتقوى والتواضع وما إلى ذلك. واذا رثوا بكوا وتفجعوا على غرار ما فعله الأسلاف. ولعل ذلك كله مما يبرر كثرة امارات الصنعة والتكلف في انتاجهم الشعري. ولا يكاد المرء يعثر على شاعر مطبوع لا يتكلف الصنعة الا ما ندر كشخصية عبد الله بن فودي علامة السودان في أغلب قصائده.

ومن أحسن ما يمكن أن يستشهد به المرء من أشعار الشعراء في العصر الفلاني (جيمية) للاستاذ عبد الله بن فودي التي مدح بها الشيخ جبريل والشيخ عثمان بن فودي، وهي طويلة في أربعة وستين بيتاً افتتحها بقوله :

عج نحو أوضاع الاحبة من مج واشرب من الانساج ماء الزعيج⁽²⁾
ثج الدموع على منازلهم بها واشف الجنان من الهموم الدمج
والقصيدة كتبت على نهج القدامى من وقوف على الأطلال ومبادرة الشراب والبكاء على الدمن، وما إلى ذلك.

وفي القصيدة كذلك حسن التلخص إلى الموضوع الرئيسي الذي هو المدح الذين منه

دع عنك ذا عُد للذي منع الكرى
لابن السرى لا تسر سير الدعلج

ثم استمر الشاعر يخلع على أحد الممدوحين شمائل وصفات حميدة كثيرة منها :

شمس الضحى بزغت بغرب فانتحت للشرق تشرق في قریش وخزرج
متفنن متبحر في علمه متعطف متلطف للمعفج
شجع طليق الوجه هين لين للمسلمين ومزدر للهمج

(1) حركة اللفه ص 158.

(2) عبد الله بن فودي : (تزيين الوقفات...) تحقيق ماريين مسكت : مطبعة جامعة ابادن 1963 .. ص 32.

وهكذا إلى ان انتهى من القصيدة، وهو يستعمل كلمات عربية في أماكن عدة، تستدعي الرجوع إلى القاموس.

هذا وينبغي الإشارة إلى أن عبد الله فودي لم ينفرد باستعمال مثل تلك الألفاظ وإنما تداولها شعراء آخرون، وهي ألفاظ استقوها من أشعار وكتابات السلف ولا سيما الشعراء الجاهليين.

وللعلماء أمثال عبد الله منظومات كثيرة في شتى العلوم كما ذكرنا آنفا.

النثر :

لقد أشرنا إلى أن أولى الأمر استعملوا اللغة العربية في الإدارة فظلوا هم وعلماء غيرهم يكتبون كتباً دينية وتعليمية وتاريخية ورسائل ديوانية وإخوانية. فقد قام الشيخ عثمان⁽¹⁾ وأخوه عبد الله⁽²⁾ وابنه محمد بللو⁽³⁾ مثلاً بتأليف كتب كثيرة في شتى الفنون من سياسة، وقضاء، وتفسير، وحديث، وطب، وتاريخ وما إليها. وكان ذلك كله نثراً تطغى عليه سهولة الألفاظ وقرب متناول المعاني والجري وراء السليقة والطبع. وكثيراً ما يستعمل الكتاب الألفاظ والتعابير المتداولة في الكتب الفقهية، كما تكثر في نثرهم الإشارة إلى آراء سابقهم الواردة في مؤلفاتهم، ما يدل دلالة واضحة على أنهم يريدون بذلك تذليل صعوبات تلك المؤلفات وتقريب المعلومات المختلفة إلى أذهان طلبتهم وافهامهم، وإلى جانب ذلك فأننا نلاحظ أنهم تملكوا زمام اللغة ووقفوا على أسرارها إلى حد لا بأس به.

ومن الملاحظ كذلك أن الرسائل التي كتبها العلماء كانت تحتذي نمطاً معيناً رسمه القدماء من افتتاح بالبسملة والحمدلة والصلعمة والتسليم وما إلى ذلك، كما يبدو ذلك من رسالة بعث بها أمير كنو محمد بللو إلى وزير ثصكتو محمد البخاري، افتتحها بقوله :

«باسم الله والحمد لله القائل : وما تفعلوا من شيء فإن الله به عليم، صلاته على نبيه....»

ويمكن القول بأن مستوى الثقافة العربية الإسلامية كان عالياً والذي يطالع ما كتبه علماء الدولة الفلانية يدرك ذلك المستوى إذ إن مؤلفاتهم في كثير من الفنون لا تقل جودة عن مثيلاتها الصادرة عن الكتاب العرب في بلادهم.

(1) له مؤلفات تربو على مائة مؤلف وعشرة مؤلفات بين كتاب ومقالة، كلها في النثر منها (أحياء السنة وأخمد البدعة) ونور الآليات، ونصيحة أهل الزمان (وبيان وجوب الهجرة) و(تقريب ضروري الدين).

(2) له ما يربو على مائة مؤلف، أغلبه نثر، ويبدو جلياً أن الأستاذ تملك زمام العربية مما جعل العلماء يصفونه بعلامة السودان، ومن مؤلفاته (ضياء التأويل في معاني التنزيل) و(ضياء السياسات)، و(ضياء الأحكام)، و(ضياء السنة)، و(تزيين الورقات)، و(تاريخ العلماء الصالحين).

(3) له حوالي مائة وعشرون مؤلفاً، من كتب ومقالات، أغلبيتها الساحقة في النثر، منها (انفاق الميسور في ذكر بلاد التكرور)، و(نيل العرام عن شيم الكرام)، و(أصول السياسة)، و(رسالة إلى جامعة المسلمين)، و(برد الكلام فيما جر بيني وبين عبد السلام).

ومما هو جدير بالذكر أن العلماء استمروا يستعملون اللغة العربية كشأن من سبقهم في العصر السابق، وساهموا في تطور مختلف فنونها دون أن يتقيدوا بمحاكاة السلف تقليداً أعمى، ونستشهد على ما نقول مثلاً بنزيبين الورقات حيث سرد وقائق تاريخية وسجلها شعراً تتوسطها بيانات نظرية.

اللغة العربية في العهد الاستعماري⁽¹⁾ :

تتصف هذه الفترة في أولها بشيء من الجمود الذي أصاب اللغة العربية والدراسات الإسلامية، نتيجة لسياسة المستعمر، تلك السياسة التي عملت على إضعاف العربية بشتى الطرق، فالمستعمر أتى إلى الامارات التي كانت تحت الدولة الفلانية ولم تكن هناك مدارس حكومية تشرف عليها الحكومة وتنفق.

فلم يؤسس هو الآخر مدارس رسمية أول الأمر إلى أن مر زمن طويل. وحين حاول أن يفتحها لم تكلل المحاولات الأولى بنجاح إذ ان آباء التلاميذ الصغار والطلاب الكبار المسلمين أدركوا أن القائمين على التدريس كانوا يدرسون اطفالهم جوانب هامة الدين المسيحي بطريقة غير مباشرة⁽²⁾ وظل الأمر هكذا حتى سنة 1909 عندما فتح الانجليز في كفو في الشمال أولى مدرسة لتدريب مدرسين يقومون بالتعليم في المدارس التي ستفتح. ثم فتحت مدرسة ابتدائية هناك لاستيعاب تلاميذ المحافظات الشمالية، تلتها مدرسة مثلها في بصكتو وأخرى بكثنة. وبذلك المدارس كان التلاميذ يتعلمون القراءة والكتابة بلغة الهوسا وبالحروف اللاتينية. ونتيجة لتدخل من الأمراء المسلمين أضيفت اللغة العربية وعلم الدين إلى مواد الدراسات.

ولا عجب في ذلك لأن سياسة المستعمر كانت تهدف إلى تعزيز لغته على جميع اللغات المحلية، وقد أدرك أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية أو كادت وإن اللغات المحلية كانت تكتب بالحروف العربية فحاول جهده أن يستبدلها باللغة الانجليزية وإن يجعلها اللغة الرسمية، لتحل محل العربية في شتى مرافق الادارة فيما عدا المحاكم الشرعية.

ولقد فكرت الحكومية، مع مرور الزمن، في أن تساهم في التعليم العربي بازاء التعليم الغربي الذي كانت له الضدادة. الا أن مجهود الحكومة لم يتجاوز أن جعلت العربية والهوسا مادتين لغويتين لهما الحل الثاني بعد الانجليزية. وفي حين ان المواد الأخرى كانت تتمتع بعناية فائقة نسبياً من جهة الحكومة، ولها مناهج منظمة حسب الطريقة التربوية الحديثة وبإشراف أساتذة مدرسين بدقة وإشراف من رؤساء المدارس ومن الوزارة نجد اللغة العربية وعلم الدين قد تركا لاهواء المدرسين الذين لم يكن لهم تدريب ولا تأهيل يذكر، كل يعمل على هواه وبدون منهج واضح وبدون تدخل الجهات الرسمية، ولا وجود لأساتذة ومعلمين أكفاء مستعدين ثقافياً

(1) فترة الحكم البريطاني في بعض جنوبي البلاد منذ سنة 1861 إلى 1903 عندما استولى المستعمر على الشمال وحتى سنة 1960 وفي تلك السنة استقلت البلاد كلها عن بريطانيا.

(2) حركة اللغة العربية... ص 93.

ونفسيا للقيام بالواجب، الأمر الذي جعل المادتين تتخلفان. كما أن هؤلاء المدرسين لم يكونوا في الغالب منخرطين في سلك النظام الجديد العلماني، فقد كانوا طاعنين في السن غرباء عن الجو الجديد، يعتبر أكثرهم الثقافة الغربية والتشبث بها كفرا ومروفا.

وزاد الطين بلة أن كان هناك فارق كبير بين رواتب هؤلاء المدرسين ورواتب مدرسي المواد الأخرى وعلاواتهم.

وقد شكلت جميع هذه العوائق عوامل قوية ساعدت على تخلف المادتين، ليس في المدارس فقط ولكن في أوساط المجتمع الأخرى وظل هذا الوضع دونما تغيير إلى نحو ربع القرن تقريبا، وذلك عقب مؤتمر كنو⁽¹⁾ الذي قرر مناهج للمادتين في جميع المدارس الحكومية في الشمال ولكن المسؤولين في كدونه (العاصمة) أرسلوا بالمناهج إلى المدارس وأرفقوا بها رسالة تقول من بين ما تقول ان تطبيق المناهج اختياري، فلم تطبق توصيات المؤتمر، واستمرت الأمور على ما كانت عليه حتى سنة 1944 حيث انعقد مؤتمر آخر لمراجعة المناهج المذكورة آنفا تلته مؤتمرات أخرى في هذا الصدد مما يدل على الاهتمام بهذه القضية، وقد كان لهذه المؤتمرات دورها في إعادة المكانة لهاتين اللغتين العربية والهوسا.

هذا وقد أخذت الأمور تتحسن تدريجيا لما قامت الحكومة بتدريب مدرسي المادتين للمرحلتين التعليميتين الابتدائية والوسطى في مدرسة العلوم العربية بكنو ابتداء من 1947 (وقد أسست المدرسة باسم مدرسة الشريعة الكبرى سنة 1934)⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر أن المستعمرين - بطبيعة سياستهم المناهضة للدين الاسلامي ومحاربه حيثما كان - عاملوا الكتابيب ومعاهد العلم نفس المعاملة ففي حين أنهم قدموا مساعدات هامة للمدارس التبشيرية التي كانت منظمة حسب قاموسهم رموا عرض الحائط بالمعاهد الاسلامية المذكورة، ولم يقدموا لها أية مساعدة.

وفي أوائل الخمسينات انخرط النيجيريون في رسم مستقبلهم السياسي. فأخذوا يعيدون النظر في السياسة التعليمية، كما يبدو جليا من الاجراءات التي اتخذها المجلس التشريعي الشمالي بين 1952 و 1953 ومنها تكوين لجنة مسؤولة عن رفع مستوى العربية والدين الاسلامي، أوفدت إلى السودان لدراسة الوضع فيما يخص المادتين وتقديم اقتراحات لتحسين حالهما طبقا للوضع المذكور. فكان من اقتراحات اللجنة رفع مستوى مدرسة العلوم العربية بكنو، بحيث يلتحق بها في قسم خاص طلبة الحلقات الخاصة والمعاهد الدينية، وتمتد مدة الدراسة فيها من سنتين إلى أربع سنوات، كما يؤهل الطلبة تأهيلا أحسن، ويقضي الطلبة سنة

(1) حركة اللغة العربية ص 97.

(2) كان يلتحق بها خريجو مدارس الشريعة الصغرى من المحافظات الشمالية المختلفة، وبعد تعديلات 1947، أخذ يلتحق بها حتى خريجو المدارس الوسطى والمعاهد الدينية غير الحكومية، وكان أولئك قد مروا بالنظم التعليمية الحديثة، وكان خريجوها يعملون أساتذة في المدارس الوسطى والثانوية وفي المحاكم الشرعية.

خامسة للتخصص اما للتدريس واما للقضاء الشرعي⁽¹⁾، ومن بين هؤلاء يختار طلبة ممتازون أكملوا دراساتهم هناك ويرسلون إلى بخت الرضا في السودان لمدة سنة ونصف للتدريس في الثانويات بعد العودة، ويرسل بعدد آخر ممن لهم الرغبة في القضاء الشرعي إلى جامعة الخرطوم للتدريب في القضاء للتوظيف في المحاكم الشرعية العليا عقب الرجوع.

كما اقترحت اللجنة تقديم طلب إلى الحكومة بأن تبعث بمدرس ذي خبرة طويلة في التدريس في المدارس الابتدائية إلى كني لينظم دروسا خاصة في طريقة التدريس لمدرسي المدارس الابتدائية ومفتشيها. كما اقترحت رفع مستوى مدرسة العلوم العربية إلى كلية يرأسها عميد بدلا من ناظر. واقترحت كذلك ان يبعث بستة طلاب إلى بخت الرضا للدراسات العربية والاسلامية سنة 1953. ثم أوصت بأن تترك المدارس القرآنية على ما هي عليه وتساعدوا الحكومة بالكتب. وهكذا نرى أن الحكومة قبلت تلك الاقتراحات المذكورة وشرعت في تنفيذها، ومن ذلك إفاد أحد المفتشين السودانيين إلى كني سنة 1955. حيث قام خير قيام بمهامه واستمر كذلك لسنوات عدة. اذن فان ما قامت به تلك اللجنة يشكل عاملا قويا لدفع ولافاذ اللغتين ودعمهما.

ومن العوامل التي دعمت النشاط اللغوي والديني انشاء مدارس أخرى عربية وشرعية حديثة في محافظات ومديريات أخرى غير كني يلتحق بها الطلبة من الحلقات الخاصة والمدارس الدينية، منها تلك التي فتحت بزاريا والورن وابان حيث كان التدريس في مدرسة العلوم العربية بكنو في الغالب باللغة العربية، خاصة وان عددا كبيرا من الأساتذة قدموا من السودان، وتعزز جمعهم ببعض المصريين في الفترة المتأخرة، مما حيب اللغة العربية إلى الطلبة وجعلهم يحاولون التخاطب بها فيما بينهم لا في حرم المدرسة فحسب، وانما في خارجها كذلك، وكانت اللغة مستعملة كذلك في فصول المدارس العربية والدينية الأخرى في مستويات ومجالات مختلفة.

ويضاف هذا كله ما قامت به الجمعيات الأدبية التي كان يؤسسها الطلبة، وكانوا يدربون أنفسهم ضمنها على التحدث باللغة العربية في مناقشاتهم، وكتابة المقالات واجراء مسابقات في شتى الميادين الثقافية والأدبية. ولم يقتصر التدريب على التخاطب بالعربية على تلك الجمعيات وإنما حاول الطلبة أن يتحدثوا ويتخاطبوا باللغة خارج مدارسهم، كما أصبح الطلبة والخريجون يتراسلون فيما بينهم وفي مناسبات عدة بتلك اللغة.

وإذا ما تأملنا ما كان يحدث في المدارس الدينية المعدة لتعليم الكبار في شتى المحافظات نجد أنها ظلت على ما كانت عليه. فالعلماء كانوا يدرسون كتبها وعلومها في تخصصاتهم المختلفة بنفس الطريقة القديمة فالطالب يقرأ ما يقرأ من الكتب العربية ويترجم له المعلم، مع شرح طويل أو قصير وبدونه. وإذا أتى على شيء لا يعرفه كاسم شجرة أو محصول غريب فانه

(1) حركة اللغة العربية من 102 - 103.

لا يترجمه وإنما يتركه على عربيته. على أن محاولة التخاطب باللغة بين الطلبة في مثل تلك المدارس أقل انتشاراً مما هي في المدارس المذكورة آنفاً. غير أن العلماء ظلوا يتراسلون فيما بينهم بالعربية وقد يتخاطبون بالعربية كذلك في اجتماعاتهم ولقاءاتهم.

هذا وقد أسهمت عوامل أخرى في تعزيز اللغة العربية والدراسات الإسلامية في البلاد النيجيرية في تلك الفترة الاستعمارية. منها وجود كتب عربية أدبية حديثة يتداولها الناس ويراجعها طلبة العلم ويقرؤونها في المكتبات العامة والخاصة.

ومنها أن المستعمر فتح مجالات الاتصال الثقافي بين نيجيريا والبلاد العربية بعد أن ظلت معطلة مدة طويلة، الأمر الذي أتاح لبعثات علمية أن تزور تلك البلاد للدراسة. ننكر على سبيل المثال البعثات إلى بخت الرضا بالدويم في السودان من 1954 إلى الستينات، حيث درس المبعوثون مواد عديدة منها الدراسات العربية والإسلامية وطريقة التدريس في المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد الأخرى.

وإلى جانب تلك البعثات الحكومية فقد كانت هناك بعثات أخرى خاصة من بعض الأثرياء والجمعيات الخيرية، حصلوا فيما بعد على منح دراسية عندما كانوا في الأزهر.

ولقد استفاد المبعوثون من الدراسة من علماء اللغة العربية ومن البيئة الدراسية العامة من الأساتذة والطلبة الآخرين والمكتبات والمجلات والاذاعة والتلفزيون وتبادل الآراء، وكان ذلك كله باللغة العربية.

وعندما رجع المبعوثون شرعوا في الاسهام في رفع مستوى اللغة العربية والدراسات الإسلامية في البلاد، ولم يقتصر ذلك الاسهام على من درس علوم العربية والدين الإسلامي، وإنما تعداه إلى من درس مواد غيرهما، فلعب هؤلاء دوراً هاماً في تعزيز المادتين بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

وعلاوة على كل ذلك فقد ظل الحج عاملاً قوياً يلعب دوره، فالذين يمرون بمصر يجاورون الأزهر الشريف غالباً ذهاباً وإياباً، ويستمعون إلى محاضرات العلماء المفتوحة، وفي الحرمين الشريفين يتلقون دروساً غير رسمية أثناء وجودهم في الأراضي المقدسة.

ويتضح مما سبق أن هناك عدة عوامل تفاعلت مع بعضها لدعم الاتجاه إلى تدريس العربية وعزيمها في هذا البلد.

الأدب في العهد الاستعماري :

رغم تعدد البعثات وتخرج أفواج جديدة من العلماء والأدباء فقد استمر الشعراء خلال هذه الفترة يقرضون أشعارهم في المواضيع المتداولة كالشعر التعليمي، والوعظ، والارشاد، والزهد،

والتصوف وما إليها، إلا أن بعضهم تخلص من الافتتاحيات الطللية الغزلية، وأكثر من الوصف. استمع إلى وزير صكتو الجنيد يصف الطائرة التي حملته إلى الخرطوم سنة 1945 :

يا من يصعد أنفاسا بأنفاس شوقا بخرطوم ذات الورد والاس
اصبر قليلا فإننا سوف نحملنا رعادة في الهوا ملمومة الرأس

وفيها يقول :

طيارة صوتها عال مجوفة زمكها كنوابي الشاهق الراسي
أنانة في نزول عندما بلغت إلى المحطة تمشي مشي مياس
مملوءة بكراسي ملينة بالخيش تلبس ترويجا لجلاس
تنقاد طائعة في كف صاحبها كدابة نللت في كف سواس
فاعجب لها انها عنقاء مغربة جاءت تذكر عباس بن مرداس

وقوله :

تعطى الدخان وتنتهي عن تعاملنا به عليها وهذا خلف مقياس
وللجنيد نونية رثى بها شيخه ماجى اسحاق الزكركي يقول فيها :
عرانى من الهم ما قد كفاني لموت الأديب فريد الزمان
إمام تفرد في كل فن فصار كشمس الضحى في العيان
ففي الفقه فريد كذا في الحديث وفي النحو الصرف أوفى المعانى
إذا قيل من فاق للدرس شرحا أشارت أكف له بينان
إذا العلم اشكل أبوابه له عند حلّ العقود يدان

وفي ميدان النشر نلاحظ ان الكتاب ظلوا يكتبون في الموضوعات المتداولة كذلك. فهناك رسائل مختلفة الأنواع وسرد للحقائق وخاصة التاريخية منها، ونثر فني.

نقتبس على سبيل المثال مما قاله عمر ابراهيم سنة 1943 أمام الجمعية الأدبية بمدرسة العلوم العربية وهو اذ ذاك يدرس بها⁽¹⁾ :

(1) حركة اللغة العربية.. ص 225.

«لقد أخطأ من ظن أن هذه الدنيا خلقت فقط للكافر، وإن المسلم لا ينبغي له أن يأخذ منها حظه الوافر، وأن الزاهد هو من استغنى عن الثياب بالجلباب وبطعام تعافه الكلاب وبتدار خربة يتخذها فقط للحجاب وإن من كانت ثيابه وسخة، وأطعمته قذرة هو الذي وصل إلى حقيقة التقوى وفاز بالخطوة ولو اتبع أحيانا الهوى، كلا إن هذا الظن غلط، ومن أخذه زل وسقط، لأنه كثيرا ما يوجد أمير عادل وتقي، وهذا مسكين فاجر شقي، فمثل هذا الظن هو الذي أضر المسلمين. فبدلا من أن يكونوا متقدمين صاروا على مضاجعهم نائمين وانساهم هذا الظن السلم الذي يرقى بهم إلى القوة ويعتلي إلى أعلى الذروة».

وفي جلسة أخرى ارتجل نفس الكاتب قائلا :

«وبعد أردت أن أودع أخواني، ولكن عجز عن الكلام لسانی، لهم شديد عناني، ولم لا أحزن في وقت يبعد بعده ملاقة خلاني، ولكن آمال الشوق إلى حب الوداع عناني، ولذلك أرغمت جناني بأن أتكلم بما عراني، وإن كان قليلا كفاني، لاشتغالي بمقاساة أشجاني...»

إلى أن قال :

«ثم أخاف أن يوسوس لك الخناس، لتأخذ في القضاء على أموال الناس، وإن أطعته فبئس التابع والمتبوع لظلم العباد، ونشر الفساد، في البلاد. وإن ربك لبالمرصاد...، وأتعجب ممن يعلو في الاجتهاد الذروة، لكي يجد الرشوة، والحال إن الله قد لعن الراشي والمرتشى.. ثم يذهب بك إلى الأمير وأش يشي. فيأخذ ما أعطاك لكي يجد الطعام فنخجل بين الأنام، وتشمت بك الاعداء مدى الأيام»⁽¹⁾.

اللغة العربية بعد الاستقلال :

لقد شهدت اللغة العربية تطورا ملحوظا بعد الاستقلال إذ حاولت الحكومة رفع مستواها ومستوى الدراسات الإسلامية، فالزاوية الأولى التي دخلها الإصلاح هي زاوية المدارس القرآنية، إذ عين مسؤول خاص بتنظيم اللغة العربية في وزارة التربية والتعليم سنة 1960 بكادونه عاصمة الشمال آنئذ. وكان متخصصا في المادتين، ومنصبه موازيا لمنصب مفتش التعليم آنذاك. وشكل ذلك تطورا كبيرا إذ أن مفتش التعليم العام قبلئذ كان هو المسؤول عن المادتين يسندهما إلى موظف من موظفيه، مما جمعد تطور المادتين، ذلك أنه لم يكن له ولا لموظفه معرفة بهما، فأسندت إلى هذا المسؤول الجديد مهمة تنظيم المدارس القرآنية إلى جانب تنظيم اللغة العربية العامة.

كما شكلت الحكومة الشمالية في نفس السنة لجنة يرأسها وزير التربية والتعليم للنظر في مشاكل المدارس القرآنية والإسلامية⁽²⁾ قام وفد منها بزيارة مصر والسودان وليبيا لدراسة تجارب هذه الأقطار والطرق التي اتبعتها لحل قضايا أمثال تلك المدارس.

(1) الثقافة العربية في نيجيريا ص 345.

(2) يلاحظ أن عددا كبيرا من المدارس الإسلامية قد انبثق في شمال نيجيريا وفي الجنوب، شكلها نظامي لا يختلف عن النظام المنبع في المدارس الابتدائية.

واثر عودة الوفد قدم تقريره للجنة فقامت اللجنة هي الأخرى بتقديم اقتراحات للحكومة التي قبلت الاقتراحات ووضعتها موضع التنفيذ وكان من نتائج ذلك أن قدمت الحكومة - عن طريق الحكومات الأهلية المحلية - مساعدات مادية ومعنوية للمدارس القرآنية وأصحابها، وحاولت أن توقف المعلمين هناك عن الانتقال بين القرى والمدن مع تلاميذهم وخاصة الأطفال منهم. وقد سجلت الحكومة شيئا من النجاح بهذا الصدد. كما اعترفت بأهمية تلك المدارس كجزء لا يتجزأ من البرامج التعليمية للأطفال المسلمين.

ولقد قنمت الحكومة كذلك مساعدات مادية كبيرة لرفع مستوى المدارس الإسلامية في محاولتها تنظيمها كمدارس ابتدائية إسلامية يلتحق بها التلميذ ويقضي بها سبع سنوات ثم يلتحق بالمدرسة الثانوية.

وجدير بالذكر كذلك أن الحكومة خطت خطوات كبيرة لتعزيز اللغة العربية والدراسات الإسلامية ففتحت معهدا لتدريب مدرسي اللغة العربية بصكتو سنة 1962 على نمط مدرسة العلوم العربية بكنو، ثم قامت بعض الحكومات الأهلية بإنشاء معاهد مثله ومن هذه الحكومات المحلية حكومات كنو وكثنة وصكتو وبرنو.

كما تعززت اللغة العربية والدراسات في المدارس الحديثة بوجود عدد كبير من المواطنين المؤهلين للتدريس عقب تدريبهم في البلاد العربية والأوروبية وأمريكا، لهم كفاءة ورواتب كأخوانهم مدرسي المواد الأخرى. إلى جانب وجود عدد لا بأس به من الأساتذة المعارين من مصر والسودان مؤهلين للتدريس. كما تنبغي الإشارة إلى أن عددا كبيرا من الكتب المناسبة في اللغة والأدب والدراسات الإسلامية وجدت طريقها إلى نيجيريا من البلاد العربية وغيرها عن طريق الأساتذة المذكورين وعن طريق الاستيراد إلى المكتبات وقد ساعدت جميع هذه العوامل على تيسير سبل التدريس وشجعت الاقبال على المدارس.

وزيادة على ذلك فإن الأساتذة لفتوا انتباه المتقنين والطلاب إلى الاستفادة من الاذاعات العربية وإلى أهمية الاستماع إليها وقراءة المجلات العربية الواردة من بلاد مختلفة، كما ساعدتهم على تشكيل جمعيات أدبية وثقافية. فاذا اعتبرنا أن اللغة العربية هي لغة التدريس وأن عددا كبيرا من الطلبة يستمعون إلى الاذاعات المذكورة ويقرؤون المجلات العربية ويتدربون على التحدث والمناقشة باللغة العربية في جلسات جمعياتهم بدا لنا جليا تزايد نسبة عدد من يفهم اللغة ويتحدث بها تزايدا أكبر من ذي قبل، مع ما في اللغة من مصطلحات حديثة لا يستطيع العلماء التقليديون فهمها، إذ أنهم ظلوا في دهاليزهم وحلقاتهم يمارسون ما عهدهم من تدريس وتأليف دونما تأثر بوضع اللغة العربية ومستواها. ولم يكن في استطاعتهم كذلك أن يفهموا فهما جيدا ما يذاع في الاذاعات المشار إليها أنفا ولا ما يكتب في الجلات العربية.

وتنبغي الإشارة هنا إلى أن مدارس كثيرة أخرى وكليات للمعلمين والمعلمات تعنى بالدراسات العربية والإسلامية أسست إلى جانب ما قامت به الجامعات أمثال جامعة باييرو

ويكنو، وجامعة صكتو وجامعة أحمد بللو بزاريا، وجامعات مايد وغري والورل وإباين. فقد اهتمت هذه الجامعات بالدراسات المنكورة والبحث فيها. ومن المدارس المنكورة اعلاه مدارس حكومية وأخرى خاصة أسستها المؤسسات والأفراد، ولقد حظيت اللغة والدراسات الاسلامية بالاهتمام نتيجة لزيادة حصصها في المدارس الثانوية وكليات المعلمين والمعلمات العامة.

لقد أشرنا إلى أن العلماء التقليديين لم يتأثروا كثيرا بما طرأ على اللغة العربية من تطور وخاصة في البلاد العربية في أيامهم. إذ أنهم تمسكوا بما كانوا عليه من تدريس للكتب المتداولة ومؤلفات علماء الجهاد والذين خلفوهم في العصر الفلاني، ويخيل للإنسان أنهم كانوا أقل ثقافة من سلفهم فاكتفوا بدراسة كتب السلف، فكانوا كذلك أقل منهم نشاطا في التنقف والتحصيل وأقل استعدادا للإنتاج. زد على ذلك عدم اطلاعهم على مؤلفات أدبية حديثة معاصرة من البلاد العربية مع أن عراقيل وعقبات كانت تقف بين تلك البلاد ونيجيريا قد أزيلت، أو وصلت المؤلفات إلى نيجيريا ولكنهم لم يحصلوا عليها أو وصلتهم ولكنهم لم يفهموها.

وهناك عامل آخر ساعد على تعزيز المادتين إذ قدمت أقطار عربية منحا دراسية لنيجيريا وتلك البلاد هي مصر والسودان والمملكة العربية السعودية وليبيا والعراق، فتحول إليها عدد كبير من الطلاب الذين استفادوا من تلك المنح، فابتداء من 1962 بعثت إلى مصر بعثات عديدة، وكانت أول بعثة إلى السودان في 1961 وإلى السعودية سنة 1962 وإلى ليبيا في 1962 وإلى العراق سنة 1964.

ومما سبق يتضح لنا أن هناك عوامل عدة ساعدت على رفع مستوى الدراسات العربية والاسلامية في المدارس والكليات والجامعات وخارجها مما عزز اللغة العربية وجعلها منتشرة في أوساط عديدة.

والمأمل في أدب تلك الفترة يلاحظ أن اللغة المستعملة كانت أرقى مما عليه في السابق وخاصة لدى المستنيرين. فللشيخ آدم عبد الله الالوري كتب ومقالات يشعر المرء أثناء قراءتها أن الشيخ قد تملك زمام اللغة العربية ووقف على خفاياها فيكتب بها في أسلوب شيق جميع فيه قوة تعبير ووضوح دلالة. استمع إليه مثلا يخاطب خريجي مركز التعليم العربي بأغيفي سنة 1970، فيما يخاطبهم به :

«يا أبناء المركز في التعليم اعلما أن الهدف الأول من تأسيس هذا المركز سنة 1952م هو ايجاد مجموعة مؤمنة مثقفة تكون قوة اسلامية عاملة في هذه البلاد التي كانت تفقد ايمانها ودينها وثقافتها الاسلامية من آثار الجهل الذي بسطه التعليم الانجليزي ليتم لهم تجريد المسلمين من اسلامهم».